التطرف في شعر الحماسة

مدرس مساعد حيدر عبد الكاظم أحمد الدباغ
المديرية العامة للتربية في محافظة النجف الأشرف

البريد الإلكتروني Email : haidaraldabaagh@gmail.com

الكلمات المفتاحية: الشاعر ، الفخر ، الدماء ، التعصب ، القبيلة.

كيفية اقتباس البحث
الدباغ ، حيدر عبد الكاظم أحمد، التطرف في شعر الحماسة، مجلة مركز بابل للدراسات الانسانية، تموز ٢٠٢٤،المجلد:١٤ ،العدد:٣ .

هذا البحث من نوع الوصول المفتوح مرخص بموجب رخصة المشاع الإبداعي لحقوق التأليف والنشر (Creative Commons Attribution) تتيح فقط للآخرين تحميل البحث ومشاركته مع الآخرين بشرط نَسب العمل الأصلي للمؤلف، ودون القيام بأي تعديل أو استخدامه لأغراض تجارية.

مفهرسة في Indexed
IASJ

مسجلة في Registered
ROAD

Extremism in the poetry of enthusiasm

Assistant Professor Hayder Abdulkadhim Ahmed
The General Directorate of Education in Najaf AL- Ashraf

Keywords : poet, pride, blood, fanaticism, tribe.

How To Cite This Article
Ahmed, Hayder Abdulkadhim, Extremism in the poetry of enthusiasm, Journal Of Babylon Center For Humanities Studies, July 2024,Volume:14,Issue 3.

This is an open access article under the CC BY-NC-ND license (http://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/

This work is licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International License.

Abstract :

Because of the desert environment and the lack of resources, the culture of invasions, plunder and raping became widespread in the Arabian Peninsula, which created a state of tension, and the poet was glorifying his heroism and proud of himself. Which made him often go to extremes in his descriptions of killing and blood for the purpose of terrorizing his enemies on the one hand, and being the mouthpiece of the tribe on the other hand, glorifying and mentioning itIts exploits are for the people, and the poet finds himself part of this tribe, which he is proud of and mentions its heroism. When he glorifies the tribe, he glorifies himself. Because he identified with the tribe, which made him a part of it, and therefore the poet worked in that period in two directions: The first was to spread the culture of blood in society, so the more his poems depicted blood and violence, the moreIt was more effective in terrorizing his enemies. The second trend was to fan the fire of grudges and revenge between tribes, which made conflicts last for years or even decades. The poet was not an advocate of peace. Rather, he was a warmonger.

ملخص البحث :

بسبب البيئة الصحراوية ، وقلة الموارد شاع في الجزيرة العربية ثقافة الغزوات ، والسلب والنهب ، مما أشاع حالة من الاحتقان ، وكان الشاعر يمجّد ببطولاته ، ويفخر بنفسه ؛ مما جعله في كثير من الأحيان يتطرف في وصفه للقتل والدماء لغرض إرهاب أعدائه من جهة ، وكونه لسان حال القبيلة من جهة أخرى ، يمجدها ويذكر مآثرها للناس ، وكان الشاعر يجد نفسه جزءاً من هذه القبيلة التي يفخر بها ويذكر بطولاتها ، فحينما يمجد القبيلة فإنه يمجد نفسه ؛ لإنه قد تماهى في القبيلة ، مما جعله جزءاً منها ، وبالتالي عمل الشاعر في تلك الفترة باتجاهين : الأول هو إشاعة ثقافة الدم في المجتمع ، فكلما كانت أشعاره تصور الدم والعنف كلما كانت أنجع في إرهاب أعداءه ، والإتجاه الثاني هو إذكاء نار الضغينة والثأر بين القبائل مما جعل النزاعات تطول لسنين بل لعقود ، فلم يكن الشاعر داعية سلام ؛ بل كان داعية حرب .

المقدمة :

لفترة غير قصيرة كان الشاعر يمثل لسان حال القبيلة ، فهو الناطق باسمها ، والمتغني بأمجادها ، ومآثرها ، وهذا الشيء ـ بطبيعة الحال ـ جعل منه أداة إعلامية فعالة في تلك الفترة ، وهذا الشيء جعله يمجد بنفسه من جهة ، وبالقبيلة من جهة أخرى ، والناس تتلقف ما يقول ، إلى أن وصل الحال به إلى المبالغة والتطرف في تصوير البطولات (الوهمية) له ، أو للقبيلة ، لأنه حينما يمدح القبيلة فهو يمدح نفسه بشكل غير مباشر ؛ لأنه تماهى في القبيلة وأصبح جزءاً منها ، وهذه المبالغة دفعت بالشاعر إلى التطرف في وصف حلات القتل والدماء وأخذ الثأر ، وبالتالي أصبح الشاعر أداة للتطرف والتعصب والإرهاب أمام الأعداء ، وهو في هذه الحالة لم يكن داعية سلام ؛ بل كان داعية حرب ، فطالت النزاعات بسبب هذه الأبواق التي طالما دقت طبول الحرب .

فجاء البحث لتبيان هذه الحقيقة التي تجاهلها الكثير من النقاد ، فانتضم البحث على مقدمة وتمهيد ومبحثين تتبعهما خاتمة ، بينت في التمهيد معنى التطرف في اللغة والإصطلاح ، ومعنى التعصب القبلي ، والعصبية للقبيلة ، والمبالغة في وصف مآثر القبيلة .

ثم جاء المبحث الأول تحت عنوان (التطرف في دموية التصوير) ، والمبحث الثاني تحت عنوان (التعصب للقبيلة) ، ثم الخاتمة التي حملت أهم نتائج البحث .

التمهيد :

قبل الخوض في موضوع التطرف لابد من التعرف على معنى التطرف في اللغة والاصطلاح ، ليتسنى لنا الإحاطة به ومن ثم معرفة حدوده في الشعر العربي .

التطرف لغة :

التطرف من الطرف، والطرف لها معان عديدة ، ما يهمنا في هذا البحث هو طرف الشيء ، والذي يعني البعد و((الطَرَفُ، بِالتَّحْرِيكِ: النَّاحِيَةُ مِنَ النواحي والطائفة من الشي، وَالْجَمْعُ أَطْرَاف ، وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: (أَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ)[١] ؛ يَعْنِي الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ فأَحدُ طَرَفَيِ النَّهَارِ صَلَاةُ الصُّبْحِ والطَّرَفُ الْآخَرُ فِيهِ صَلَاتَا العَشِيِّ، وَهُمَا الظُّهْرُ وَالْعَصْرُ، وَقَوْلُهُ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ يَعْنِي صَلَاةَ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: (وَمِنْ آناءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرافَ النَّهارِ)[٢] ؛ أَراد وَسَبِّحْ أَطراف النَّهَارِ؛ قَالَ الزَّجَّاجُ: أَطْرَافُ النَّهَارِ الظُّهْرُ وَالْعَصْرُ وأَطْرَاف النَّهَارِ سَاعَاتُهُ وأراد بها طرفيه وجمعه على أطراف ، والطَّرَفُ: مَصْدَرُ قَوْلِكَ طَرِفَتِ النَّاقَةُ، بِالْكَسْرِ، إِذَا تَطَرَّفَت أَي رَعَتْ أَطرافَ الْمَرْعَى وَلَمْ تَخْتَلِطْ بِالنُّوقِ)) [٣]. وهو عكس الوسطية.

وفي المعاجم الحديثة لا يبتعد المعنى كثيراً عمّا أورده القدماء، تطرَّفَ ، يَتطرّف، تطرُّفًا، فهو مُتطرِّف، تطرَّف الشَّيءُ: أتى الطّرْفَ، أي منتهى الشيء، صار طرْفًا "غُصن متطرِّف". تطرَّفت الشَّمسُ: أوشكت أن تغرب. تطرَّف الشَّيءَ: أخذه من أطرافه "تطرّف رغيفًا". تطرَّف في إصدار أحكامه: جاوز حدّ الاعتدال ولم يتوسّط "حزب سياسيّ متطرّف- تسعى الدّولة جاهدةً في محاربة التطرّف". التطرُّف: المغالاة السياسية أو الدينية أو المذهبية أو الفكرية، وهو أسلوب خطِر مدمِّر للفرد أو الجماعة ، تبذل بعض الدول جهودًا مضنية للقضاء على التطرُّف الإرهابي[٤]. وهو عكس الوسطية والاعتدال .

التطرف إصطلاحاً :

يعرف التطرف بأنه اتخاذ الفرد موقفاً متشدداً يتسم بالقطعية في استجابته للمواقف الاجتماعية التي تهمه والموجودة في بيئته التي يعيش فيها ، وقد يكون التطرف بالقبول الإيجابي التام ، أو الرفض السلبي التام بعيداً عن الوسطية والإعتدال بين القبول والرفض[٥] .

فالتطرف مفهوم فكري يطلقه الآخرون على فئة معينة ، ولا يطلقها المتطرفون على أنفسهم ، فلا يقول أحد أو فئة معينة إننا متطرفون ؛ بل الجميع يجد نفسه معتدلاً ، لكن نظرة الآخرين لما يحمله من أفكار تجعله في أعينهم متطرفاً ؛ لوجود حالة من التعصب الفكري وعدم السماح لتقبل أفكار الطرف الآخر .

وهنا يطرح السؤال الآتي : هل كل مبالغة فكرية تعدّ تطرفاً ؟ وهل التطرف أنواع وأشكال ؟

للإجابة عن هذا التساؤل لأبد من معرفة شيء ، وهو أنّ التطرف يرتبط بشكل وثيق بمصطلح التعصب ، والذي يعني الانحراف عن معيار العقلانية لعدد من المعايير السلوكية المثالية ، ويكون على شكل حكم متعجل ، ورفض مسبق للتعديل أو التفكير في إطار قوالب منطقية ،

ورفض تعديل الرأي في ظل ظهور دلائل جديدة ، فالمتطرف مشحون بصبغة تعصبية ، وغالباً ما ينعزل عن الفكر السائد[٦].

فإذا كان التطرف هو التشديد بالقطعية التامة في القبول الإيجابي التام ، أو الرفض السلبي التام بعيداً عن الوسطية بين القبول والرفض نستطيع أن نقول إنّ الشعراء عندما يبالغون في مشاعرهم تجاة القبيلة أو العشيرة أو النسب بشكل لا يقبل النقاش أو المعارضة فإنهم متعصبون والتعصب مظهر من مظاهر التطرف .

التعصب للقبيلة رافق الشعراء منذ العصر الجاهلي وهذا ما أطلق عليه مصطلح (العصبية القبلية) ، إذ يرى الشاعر إن قبيلته أفضل القبائل وأشجعها ، فهذا عمرو بن كلثوم قد فتك بعمرو بن هند وقتله لأنه هجاه أذ نال من قبيلته ، فأنشد قصيدته المشهورة التي مطلعها (ألا هبّي بصحنك فاصبحينا) التي أصبحت إحدى مفاخر العرب ، وفيها يقول :

بأي مشيئة عمرو بن هند تطيع بنا الوشاة وتزدرينا
فإن قناتنا يا عمرو أعيت على الأعداء قبلك أن تلينا[٧]

فنلاحظ أنّ التعصب للقبيلة يصل إلى حد القتل ، وبالتالي نستطيع أن نقول إنّ الشاعر كان متطرفاً في عصبيته للقبيلة ، رافضاً لأي صوت يخالف معتقده ، وهذا من أهم أصول التعصب أو التطرف وهو (لا مجال لمناقشة المتطرف ولا للبحث عن أدلة توكد صحة معتقده أو تنفيه)[٨] .

وبالتالي فإننا نستعرض نموذجاً على التعصب أو التطرف الذي كان يسود حياة الشعراء ؛ بل لاحظ لغة الإرهاب في قول عمرو بن هند عند إيقاعه ببني تميم :

تحش لهم ناري كأن رؤوسهم قنافذ في إضرامها تتقلب [٩]

فنلاحظ بشاعة الصورة التي نقلها في هذا البيت ، لذا يرى الباحث إن مسألة الإرهاب والتطرف كانت موجودة تحت عباءت العصبية التي قدمها النقاد تحت مصطلح (العصبية القبلية) ، فهذا البحث قد يكون غريباً في طرحه ، لكنّه جديداً في تعاطيه مع صورة القسوة والتعصب للقبيلة .

فمن المعروف إن التعصب أو التطرف ناتج عن مشاعر القناعة بفكرة معينة ، مع رفضٍ لأي فكرة تخالفها ، حتى وإن وصل الحد إلى الإقتتال ، وبالتالي هذه المشاعر لابدَ أن تطفو على سطح حاملها ، وبما إن الشاعر تطفو أحاسيسه ومشاعره ومعتقداته على سطح قصائده ، لذا عند التتبع نجد الكثير من التطرف والتعصب تحت عنوان الحماسة أو الفخر، كون الشاعر أولاً وأخيراً هو إنسان لا يستطيع أن يكتم مشاعره ، بل هو أكثر الناس تغني بما يشعر به ، ومنها جاءت تسميته (شاعر) وهي اسم فاعل من (شَعَرَ) ، وبالتالي لابدّ أن تطفو مشاعر التعصب

على شعره ، وقد تجرّ هذه المشاعر صاحبها نحو المبالغة في تصوير القتل والإرهاب ـ كما مثلنا سابقاً ـ لغرض نصرة قبيلته وعشيرته وشرفه ، أو لتبيان شجاعته إرهاباً للخصوم . وهذا ما سوف نبينه في ثنايا البحث إن شاء الله .

المبحث الإول

التطرف في دموية التصوير

التطرف في وصف مشاهد القتل والدماء أصبحت سمة بارزة في شعر بعض الشعراء الذين يتغنون بمواقف البطولة والشجاعة وتصوير حالات قتل الأعداء ، وهذا ما نلاحظه في وصف الشعراء للدماء والقتل تحت عنوان الفخر ، بل تصل الأمور إلى أن يصف نفسه بالدموية المتعطش لسفك الدماء ، كما في قول عنترة بن شداد إذ يقول :

وَإنـــي قَـــدْ شَـــربْتُ دَمَ الأَعـــادي بأقحـــافِ الـــرُّؤوس وَمـــا رَويـــتُ [١٠]

فنلاحظ في هذا البيت منتهى الوحشية ، إذ لم يشر أحد من النقاد إلى أن هذا البيت فيه الكثير من الدموية ، فالصورة فيها إرهاب لإعداء الشاعر التي تتمثل في شرب الدم بأقحاف الرؤوس أي بعظم الجمجمة ، فهي تحوي الكثير من الفضاعة والوحشية ، وبعده يقول ما رويت ، أي إنه مازال متعطشاً للدماء ، وهذه الصورة إن دلت على شيء فإنما تدل على مقدار الدموية التي كان يعيشها الشاعر في الجزيرة العربية .

ويقول عنترة أيضاً في الغزل :

ولقـــد ذكرتـــك والرمـــاح نواهـــل منـــي، وبـــيض الهنـــد تقطـــر مـــن دمـــي
فـــوددت تقبيـــل الســـيوف لأنهـــا لمعـــت كبـــارق ثغـــرك المتبســـم

لسنين طويلة بل لعقود والنقاد يصفون هذه الأبيات لعنترة بن شداد بأنها أجمل أبيات الفخر أو الحماسة أو الغزل ، وسمها ما شئت ؛ لكن هل تأمل أحد إلى ما تحمله هذه الأبيات من دموية ، وهذه المرة هو ـ أي الشاعر ـ المغلوب ، فالرماح تنهل منه والسيوف تقطر من دمه وهو في هذا الموقف المرعب يتغنى بحبيبته ، ألم يجد موقفاً أسوأ من هذا الموقف لتذكر حبيبته التي تكادت تجره للتهلكة ، لأنه تصور لمعان السيوف كبارق ثغرها ، يالها من تراجيديا ، ودموية ونهاية مأساوية .

أعذب الشعر أكذبه :

يقول النقاد إنّ (أعذب الشعر أكذبه) وهذا القول في أصله يعود للأصمعي عندما قال : ((طريق الشعر إذا أدخلته فى باب الخير لان؛ ألا ترى أنّ حسان بن ثابت كان علا فى الجاهلية

والإسلام، فلما دخل شعره فى باب الخير– من مراثى النبى صلّى الله عليه [وآله] وسلم وحمزة وجعفر رضوان الله عليهما وغيرهم– لان شعره . وطريق الشعر هو طريق شعر الفحول، مثل امرئ القيس، وزهير، والنابغة، من صفات الديار والرّحل، والهجاء والمديح، والتشبيب بالنساء، وصفة الخمر والخيل والحروب والافتخار؛ فإذا أدخلته فى باب الخير لان))[١١]، هذا كلام جيد يمكن أن نتقبله في باب وصف الطبيعة أو وصف الجمال أو الوصف بشكل عام لما يحمله من مبالغة قد تعجب المتلقي ؛ لكن أن يصف موقفاً دموياً بشعاً تحت غطاء الفخر أو الحماسة هذا غير مستساغ ـ وإن كان البعض لا يعجبه هذا الطرح لما للشعراء القدماء من قدسية عندهم ـ لكنني أتكلم بشكل موضوعي مع كامل احترامي للموستوى الفني العالي الي لا يختلف عليه إثنان.

أمّا ابن فارس في الصاحبي فتكلم عن الكذب في الشعر كلاما موجزا مفاده أن الكذب سمة الشعراء ولولا الكذب لما كان للشعر حلاوة ، فلذلك نزّه الله عز وجل رسوله عن قول الشعر يقول : ((وإن كَانَ أفضل المؤمنين إيماناً وأكثر الصالحين عَمَلاً للصالحات فلم يكن ينبغي لَهُ الشعر بحال، لأن للشعر شرائِط لا يُسمى الإنسان بغيرها شاعراً، وذلك أن إنساناً لَوْ عَمِلَ كلاماً مستقيماً موزوناً يتحرّى فِيهِ الصدق من غير أن يُفْرِط أَوْ يتعدَّى أَوْ يمين أَوْ يأتي فِيهِ بأشياء لا يمكن كونها بتَّةً لما سمّاهُ الناسُ شاعراً ولكان مَا يقوله مَخْسولاً ساقطاً . وَقَدْ قال بعض العقلاء وسُئِل عن الشعر فقال : (إن هَزَلَ أضحكَ، وإن جَدَّ كَذَبَ) فالشاعر بين كَذِب وإضحاك، فإذا كَانَ كذا فقد نزّه الله جلّ ثناؤه نبيَّه –صلى الله عليه [وآله] وسلم– عن هاتين الخِصْلتين وعن كل أمر دنيء))[١٢]. وأنا لا أختلف مع أحد على صحة هذا الكلام ، لكنني أتحفظ على الأبيات التي تحوي الدموية وبشاعة الصورة .

قد يعترض أحد ويقول إن هذا الشعر من نسج خيال الشاعر ، وهذه أشياء لا وجود لها على أرض الواقع ، لأنّ ديدن الشعراء المبالغة في التعبير ، الرد عليه بأن الإفكار التي كانت في ذهن الشاعر حين نظم القصيدة كانت أفكار دموية أنزلها على أرض الواقع بكلمات موزونة ، وبقوالب شعرية تحمل فنية عالية طار بها المتلقون ومن بعدهم النقاد ، إلا إن الصورة حين تحليلها تبقى دموية بشعة لا تحمل صفة إنسانية ، وهذا ما لم يلتفت إليه أغلب النقاد الذين تناولوا الصورة الفنية. وجاء في شرح ديوان الحماسة :

نهلنـــا مـــن دمـــاء بنـــي لـــؤيٍ وأنهلنـــا القنـــا حتـــى روينـــا[١٣]

هذا البيت وغيره يعكس مقدار شرب الدماء حتى شبعوا ارتواءً ، وهذه صورة تحمل الكثير من الدموية والخشونة التي كان يعيشها العربي في الجزيرة العربية ، ونستطيع أن نقول إنّ أغلب سكان الجزيرة العربية تحمل نفس التصورات ، إنما الفارق إن الشاعر صبّ هذه الصورة في قالب شعري ، وهذا القالب الشعري هو الذي حفظ هذه الصورة من الضياع فبقيت محفوظة إلى يومنا هذا .

صورة الدم التي طبعت على شعر الحماسة توحي بالإقتتال والثأر والغزوات والكره والعداوة ، وكل هذه الصور توحي بوجود حالة من العصبية ؛ لأنّ الشاعر لسان حال قبيلته ، فهو ينصرها أمام الأعداء ، لكن تبقى الصورة الدموية شاخصة أمام المتلقي عندما يقرأ أو يسمع هذه الأبيات ، وبالتالي نشر حالة من الإحتقان والشحناء والتعصب التي تزيد من حالة التوتر والإقتتال بين الأفراد والقبائل ، ولا تعمل على تهدئة النفوس ، وهذا ما أدى إلى زيادة حالات السلب والنهب والغزوات التي أدت بحياة الكثيرين ، لذا نجد الإقتتال بين القبائل كان يطول لسنين بل لعقود بسبب هذا النَفَس المؤجج للصراع ، المتعطش للدماء الذي يعمل على تأجيج الأحقاد بهذه الصور الوحشية المليئة بالمبالغة ، المليئة بصور قد تكون لا أساس لها ، مثل داحس والغبراء ، أو الأوس والخزرج وغيرها ، وهذا أبو تمام خير مثال على ذلك ، إذ يقول [١٤] :

سائل أسيد هل ثأرت بوائل أم هل شفيت النفس من بلبالها
إذا أرسلوني مائحاً بدلائهم فملأتها علقاً إلى أسبابها

تبقى صورة الثأر بين القبائل مادام فيها شعراء يستعملون هذا الإسلوب ، فلفظة (بلبالها) تعني المهتم بطلب الثأر ، أما الشطر الثاني من البيت الثاني فهو الأكثر دموية ، إذ إن الشاعر يملأ الدلاء علقاً ـ وهو الدم الجامد ـ إلى أعناقها منهم ، كل ذلك حتى تهدأ عنده نار الثأر ، فتبقى هذه الصورة المتخيلة شاخصة على مدى العصور ، وبالتالي لا تعمل على نشر السلام بين الأطراف .

وهذا عامر بن الطفيل يصور غزوة شرسة على حيّ اصاب النساء فيه بالرعب حتى أجهضت الحبالا من الخوف ، وأسقطت ما في بطونها من أجنة ، وعبّر عن هذه الصورة تعبيراً بشعاً ، إذ قال[١٥] :

ونحن صبّحنا حيّ أسماء غارةً أبالت حُبالى الحي من وقعها دما

وعبارة (أبالت حبالى الحي من وقعها دما) كناية عن الإجهاض خوفاً ورعباً من الغزاة ، وهذه ـ مؤكد ـ ليست معركة بل هي غارة وحشية على الأبرياء لغرض السلب والنهب ، وكان هذا مما يفخرون به .

الدموية في المدح :

اتكأ الشعراء القدماء على الدماء في وصف الممدوح ، ورسم صورة الممدوح بالدموية المخيفة والمرعبة ، من ذلك ما مدح به النابغة الذبياني عمر بن الحارث الغساني ، فمن شجاعة الممدوح أن تصاحبهم الضواري ثقة بأنهم سيغلبون الأعداء ويتركونهم جثثاً للطيور المفترسة ، لأنّ هذه الضاريات تعلمت على حالة الإنتصار (دوارب من الدربة والتعلم) ، وهي تنظر بمؤخرة عيونها (خزرا عيونها) إلى نهاية المعركة حتى تنقض على الجثث التي يفيض منها الدم ، فيقول[١٦]:

إذَا مَـاغَزوا بِـالجَيشِ حَلَّـقَ فَـوقَهُم ... عَصـائِبُ طَيـرٍ تَهتَـدي بِعَصـائِبِ
يُصـاحِبنَهُم حَتّـى يُغِـرنَ مُغـارَهُم ... مِـن الضـارياتِ بِالـدِماءِ الـدوارِبِ
تَـراهُنَّ خَلـفَ القَـومِ خُـزراً عُيونُهـا ... جولـوس الشـويخِ فـي ثِيـابِ المرانِـبِ
جـوانِحَ قَـد أَيقَـنَّ أَنَّ قَبيلَـهُ ... إِذا مـا اِلتَقـى الجَمعـانِ أَوَّلُ غالِـبِ
لَهُـنَّ عَلَـيهِم عـادَةٌ قَـد عَرَفناهـا ... إِذا عُـرِّضَ الخَطِّـيُّ فَـوقَ الكواثِـبِ
عَلـى عارِفـاتٍ لِلطِعـانِ عَـوابِسٍ ... بِهِـنَّ كُلُـومٌ بَـين دامٍ وَجالِـبِ

فبقاء الجثث على الأرض وفيها كلوم تنزف بالدم تغري هذه الضواري على افتراس الجثث بعد انتهاء المعركة ؛ لأنّ اصحابهم إما ماتوا وإما فروا وخلفوهم على العراء .

وقال الحسن بن مطير في المديح[١٧] :

لـه يـوم بـؤس فيـه للنـاس أبـوس ... ويـوم نعـيم فيـه للنـاس أنعـم
فيمطـر يـوم الجـود مـن كفـه النـدى ... ويمطـر يـوم البـأس مـن كفـه الـدم

فنجد إن الشاعر استعان بالدماء لتقوية ممدوحة اضافة إلى كرمه ، فلفظة (يمطر) دلالة الكثرة والغزارة والسعة ، وبالتالي يد ممدوحه دموية ؛ لأنّ البيئة التي قال الشاعر أبياته فيها بيئة تعشق هذا الوصف أو المدح ، لذا نالت شهرة واسعة ودونت في كتب الادب ، بل حتى الممدوح قد سُرَّ بذلك لأنّ الشاعر يُرضي في نفسه ما يريد ، ولهذا السبب قدم البؤس على الكرم ، وأخر الدم في البيت الثاني لغرض استقامة القافية .

وهذا طرفة بن العبد يمدح نساء صعدن في هودجٍ ، فيصف الهودج بلون الدم بسبب كونه أحمراً ، دلالة على إن صورة الدم موجودة في ذهن الشاعر أذ يقول :

عـالين رقمـاً فـاخراً لونـه ... مـن عبقـريّ كنجيـع الـذبيحِ [١٨]

والحطيئة يصف نفس الموقف فيصوره بصورة تكاد تكون مشابهة لما قبلها لكن الفرق في الأولى نجيع الذبيح أي الدم المتدفق ، وهذا يصورها بدم الجوف ، إذ يقول :

عـالين رقمـاً فـوق عقـم كأنـه دم الجـوف يجـري فـي المـذارع واشـله [١٩]

مما تقدم نجد أنّ الشعراء الذي نحوا هذا المنحى ـ وهم جل االشعراء ـ قد عملوا باتجاهين : الإتجاه الأول : إنهم عملوا على نشر ثقافة الدم والدموية بين أفراد المجتمع ، حتى أصبحت هذه الصور مستساغة بل مفضلة عند المتلقي ، مما أدى إلى شيوعها وانتشارها بين أفراد المجتمع وبالتالي أصبحت محفوظة في الذاكرة وخلدت في الأدب العربي .

والإتجاه الثاني : هو إذكاء نار الأحقاد بين القبائل أو بين الخصوم بشكل عام ، مما يجعل النزاعات تطول بين أطرافها لسنين أو لعقود ، وبالتالي هذا النفس المتعصب والمتطرف لايحمل السلام بين ثناياه ؛ بل يحمل الحقد وينشر الضغينة بين أفراد المجتمع مما يزيد في الاقتتال وإطالة أمد الحروب والنزاعات إلى سنين ، بل إلى عقود .

المبحث الثاني

التعصب للقبيلة

من المعروف إنّ الإنسان يحب قبيلته وبيئته وأبناء جلدته ، وهذه المحبة تجعله يشعر تجاههم بمشاعر الإنتماء ، وإنّ ما يصيبهم يصيبه ، ويحكمه العقل الجمعي مع أفراد القبيلة ، فإذا غوت القبيلة ـ أي ضلت ـ غوى الشاعر ، وإن ترشد القبيلة يرشد الشاعر ، وبالتالي الذي يحكمه في علاقته مع القبيلة هو العقل الجمعي كما بيّنا ، مثال ذلك قول دريد بن الصمّة في هذا الصدد :

ومـا أنـا إلا مـن غزيـة إن غـوت غويـت وإن ترشـد غزيـة أرشـد [٢٠]

وقد يصل التعصب القبلي إلى حدّ لا يسألون أخاهم أذا جاءهم منادياً لنجدته أمعتدياً كان أم مُعتدى عليه ، فالمهم تلبية النداء كما في قول الشاعر قريط بن أنيف[٢١] :

قـوم إذا الشـر أبـدى ناجذيـه لهـم قـاموا إليـه زرافـات ووحـدانا

لا يسـألون أخـاهم حـين ينـدبهم فـي النائبـات علـى مـا قـال برهانـا

فانتماء الفرد للقبيلة يفرض عليه نصرة أبناءها في كل وقت ، سواء كانوا معتدين أم معتدى عليهم ، فالنصرة قائمة ، لأنه أذا لم ينصره وهو ظالم ، لم ينصره وهو مظلوم ، من ذلك قول الشاعر :

إذا لـم أنصـر أخـي وهـو ظـالم علـى القـوم لـم أنصـره وهـو ظلـوم [٢٢]

هذه الفكرة هي التي كانت شائعة عند العرب ، مما أدى إلى إعلاء راية القبيلة على كل اعتبار ، فلو قتلت القبيلة أخا الشاعر لم ينتقم منها ؛ لأنّ الإنتقام سوف يعود عليه ، لأنّ الشاعر قد تماهى في القبيلة ، فإذا انتقم يعني ينتقم من نفسه ؛ لأنّ القبيلة تمثل لحمه ودمه ، وإضعاف القبيلة يمثل إضعاف ووهن لعظم الشاعر ، من ذلك قول الحارث بن وعلة الجرمي وقد قتل قومه أخاه[٢٣] :

قومي هم قتلوا أميم أخي ... فإذا رميت يصيبني سهمي

فإن عفوت لأعفون جللاً ... ولئن سطوت لأوهنّ عظمي

هذا الإنشداد بل التماهي في القبيلة جعل الشاعر جزءاً منها فحين يمدحها فكأنّما يمدح نفسه ؛ لذلك ألحّ الشاعر في تصوير الدموية عندما يمدح عشيرته ، لغرض إرهاب الأعداء ، وفي الحقيقة هو يرهب أعدءه أولاً ، ثم أعداء القبيلة ثانياً ، فالغرض من شعر الفخر الحماسي (الدموي) هو إرضاء لرغبة للشاعر ، وإشباعاً لما في نفسه ، ومن ثم الذهاب إلى مدح القبيلة ، كما في قول راشد بن شهاب اليشكري لقيس بنَ مسعودِ بنِ قيس بن خالد الشيباني:

رأَيْتَ دِماءً أَسْهَلَتْها رِماحُنا ... شَآبِيبَ مِثْلَ الأُرْجُوانِ عَلَى النَّحْرِ[٢٤]

ومن ذلك قول مَالك بن حَرِيم الْهَمدَانِي :

وأوسعن عَقِبَيْهِ دِمَاء فأصْبَحتْ ... أصابعُ رِجْليه رواعِفَ دُمَّعا[٢٥]

من ذلك أصبحت العصبية القبلية بارزة في شعر الفخر عند أغلب الشعراء ؛ لأنهم وجدوه باباً رحباً لمدح أنفسهم ، بوصفهم جزاً من القبيلة ، مثال ذلك قول عمر بن كلثوم حينما قال[٢٦] :

ونشرب إن وردنا الماء صفواً ... ويشرب غيرنا كدراً وطينا

ويقول أيضاً:

أذا بلغ الفطام لنا وليدٌ ... تخر لنا الجبابرة ساجدين[٢٧]

فالشاعر في الحقيقة يمدح نفسه في هذه الصورة ، فهو يمثل القبيلة ، والقبيلة تمثله ، وبالتالي تكون العملية متبادلة ؛ لذا أدرجت هذه القصائد في باب الفخر ، فالشاعر حينما يفخر بالعشيرة فهو يفخر بنفسه، وهذا سببه شدة تعلق الشاعر بالقبيلة ، ومنها ظهرت العصبية للقبلية ، فهو يمدحهم بشتى أنواع المديح ؛ لأنه يمدح نفسه في واقع الأمر ، ومن ذلك قول السمؤل[٢٨] :

ونحن قوم لا نرى الموت سبّةً ... إذا ما رأته عامرٌ وسلول

يقرب حب الموت آجالنا لنا ... وتكرهه آجالهم فتطول

تسيل على حدّ الظبات نفوسنا ... وليست على شيء سواه تسيل

وما مات منا ميت في فراشه ... ولا طل منا حيث كان قتيل

هذه الصورة تبين حالة الصحراء وحالة الفروسية ، وكيف يذمون الموت في الفراش ، صورة جميلة يبين فيها الشاعر شجاعته عن طريق تبيان شجاعة قومه ، لكنه في ذات الوقت يبين شدة الإقتتال والسلب والنهب التي كانت شائعة بينهم ، وبالتالي صورة القتل والموت وسيل الدماء أصبحت من دواعي الفخر عندهم .

ثم نجد الشاعر يفتخر بالآخرين الذي تحالفوا معهم في الحرب ضد أعدائم ، فهذا الشاعر قيس بن الخطيم يقول[٢٩] :

سقينا بالفضاء كؤوس حتف بني عوف وأخوتهم يزيدا
لقيناهم بكل أُخي حرب يقودُ وراءه جمعاً عتيدا

فالشاعر يمدح حلفائه ويعبر عنهم بـ(أخي حرب) أي الرابط بينهم هي اخوة الحرب ، وكل واحد منهم يقود ورائه جمعاً قوياً متمرساً على الحروب ، في المقابل العدو (بنو عوف) قد تجرعو كؤوس الحتف مع من جاء لنصرتهم وهم (بنو يزيد) .

وقد تصل الحال إلى إرسال رسالة مع وسيط أو مرسال إلى العدو لغرض تذكيره بالهزيمة التي لحقت بهم ، والتي انتصرت فيها قبيلة الشاعر على قبيلتهم ، فيبين كيف تركوهم بين مقتول ومطرود أي من لاذ بالفرار ، وهنا أيضاً يمدح الفرسان الذين تحالفوا معهم ، فيقول[٣٠] :

ألا أبلغا ذا الخزرجي رسالة رسالة حق لستُ فيها مفندا
فإنا تركناكم لدى الردم غدوة فريقين مقتولا به ومطردا
صبحناكم منا به كل فارسٍ كريم النثا يحمي الذمار ليحمدا

هذا النفس الموجود عند الشاعر ، والذي يفتخر ويتفاخر ويبالغ في الفخر بذكر الوقائع التي أنتصرت فيها قبيلته ، وتصوير الدماء وما لحق بالعدو بأبشع صور ، تركاً أثراً واسعاً في البيئة العربية ، مليئة بالمشاحنات والتعصب والإقتتال وإطالة أمد الحرب ، فلم يكن الشعراء في تلك الحقبة دعاة سلام ؛ بل كانوا دعاة حرب ، حملوا صوراً دموية عملت على إرهاب الأعداء ، وبالتالي جعلت الأخير يقوم بردة فعل عنيفة وهكذا استمرت عجلة القتل والإرهاب من الطرفين .

الخاتمة :

لعقود عديدة وشعر الفخر له باع طويل عند النقاد في جماليته الفنية ، لكنهم ـ وللأسف ـ لم ينظروا إلى الوجه الآخر له ، وأقصد ما يحمله من دموية ووحشية عملت على إثارة الفتن والأحقاد بين القبائل ، وأذكت نار الفتن والإقتتال لسنوات طويلة ، بسبب ألسن الشعراء التي كانت تفخر بأمجاد القبيلة ، وفي واقع الأمر الشاعر كان يمجّد بنفسه أولاً ؛ لأنه تماهى في القبيلة ، إذ أصبح جزءاً منها ينصرها في كل الظروف سواء كانت معتدية أم معتدى عليها ،

وهذا دفعه الى المبالغة في تصوير انتصارات القبيلة ، والتنكيل بالعدو راسماً صوراً غاية في الوحشية أحياناً ، مما جعل الشعراء في تلك الفترة دعاة حرب لا دعاة سلام ، تحت مصطلح العصبية القبلية التي دفعت إلى رسم صور إرهابية للقبيلة في الحروب والغزوات .

الهوامش :

١ ـ هود : ١١٤

٢ ـ طه : ١٣٠

٣ ـ ينظر : لسان العرب : ٩ / ٢١٦ باب (طرف)

٤ ـ معجم اللغة العربية المعاصرة : ٢ / ١٣٩٦

٥ ـ http://www.moqatel.com

٦ ـ ينظر المصدر نفسه .

٧ شرح المعلقات التسع : ٣٢٩

٨ ـ http://www.moqatel.com

٩ ـ ينظر : معجم الشعراء : ٢٠٦

١٠ ـ شرح ديوان عنتر بن شداد : ٣٨

١١ ـ الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء : ٧١

١٢ ـ الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها : ٢١٢

١٣ ـ شرح ديوان الحماسة : ٢٨٦

١٤ ـ ديوان الحماسة : ١٤٨

١٥ ـ ديوان عامر بن الطفيل : ١٢٩

١٦ ـ ديوان النابغة : ١٤

١٧ ـ شرح ديوان الحماسة : ١١١٨

١٨ ـ ديوان طرفة بن العبد : ص ٢٠ والرقم : نوع من البرود مزركشة وموشاة بلون أحمر

١٩ ـ ديوان الحطيئة : ١١٠ المذارع : ركبة البعير

٢٠ ـ الأصمعيات : ١٠٧

٢١ ـ ديوان الحماسة (أبي تمام) : ٤

٢٢ ـ المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام : ٣٩٣

٢٣ ـ شرح ديوان الحماسة : ١٤٩

٢٤ ـ المفضليات : ٣١٠

٢٥ ـ الأصمعيات: ٦٦

٢٦ ـ ديوان عمر بن كلثوم : ٩٠

٢٧ ـ المصدر نفسه : ٩١

٢٨ ـ ديوان عامر بن الطفيل : ١٣

٢٩ ـ ديوانه قيس بن الخطيم : ١٤٧

٣٠ ـ المصدر نفسه : ٢١٦ ـ ٢١٧

المصادر والمراجع :

القرآن الكريم

- الأصمعيات اختيار الأصمعي : الأصمعي أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن علي بن أصمع (المتوفى: ٢١٦هـ) ، المحقق: احمد محمد شاكر – عبد السلام محمد هارون ، دار المعارف – مصر ، ط٧، ١٩٩٣م
- ديوان الحطيئة : اعتنى به وشرحه حمدو طمّاس ، ط٢ ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، ٢٠٠٥م .
- ديوان الحماسة : لأبي عباد الوليد بن البحتري (ت ٢١٨هـ) ، تحقيق : د. محمد إبراهيم حور ، وأحمد محمد عبيد ، ط١ ، المجمع الثقافي ، أبو ظبي ، ٢٠٠٧م .
- ديوان طرفة بن العبد : اعتنى به وشرحه حمدو طمّاس ، ط١ ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، ٢٠٠٣م .
- ديوان عامر بن الطفيل : رواية أبي بكر محمد بن القاسم الأنباري ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٩م .
- ديوان عمرو بن كلثوم : جمعه وحققه وشرحه أميل بديع يعقوب ، ط١ ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، ١٩٩١م.
- ديوان قيس بن الخطيم : تحقيق : د. ناصر الدين الأسد ، ط٢ ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٧م .
- ديوان النابغة الذبياني :اعتنى به وشرحه حمدو طمّاس ، ط٢ ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، ٢٠٠٥م .
- شرح ديوان الحماسة (ديوان الحماسة: اختاره أبو تمام حبيب بن أوس ت ٢٣١ هـ) : يحيى بن علي بن محمد الشيبانيّ التبريزي، أبو زكريا (المتوفى: ٥٠٢هـ) : دار القلم – بيروت .
- شرح ديوان عنترة بن شداد : قدم له ووضع هوامشه وفهارسه مجيد طراد ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٢م .
- شرح المعلقات التسع : لأبي عمرو الشيباني (ت ٢٠٦ هـ) ، تحقيق وشرح : عبد المجيد همو ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت – لبنان ، ط١، ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١ م
- الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها : أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ) ،الناشر: محمد علي بيضون ، ط١ ، ١٤١٨هـ–١٩٩٧م
- لسان العرب : محمد بن مكرم بن على بن منظور (ت٧١١هـ) ، مراجعة وتدقيق : د. يوسف البقاعي ، وآخرون ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٥م .
- معجم الشعراء : للإمام أبي عبيد الله محمد بن عمران المرزباني (المتوفى : ٣٨٤ هـ) بتصحيح وتعليق : الأستاذ الدكتور ف . كرنكو ، الناشر : مكتبة القدسي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ، ط٢، ١٤٠٢ هـ – ١٩٨٢ م
- معجم اللغة العربية المعاصرة : د أحمد مختار عبد الحميد عمر (المتوفى: ١٤٢٤هـ) بمساعدة فريق عمل ، الناشر: عالم الكتب ، ط١، ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨ م .
- المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام : الدكتور جواد علي (المتوفى: ١٤٠٨هـ) ، دار الساقي ، ط٤ ، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م .

●المفضليات : المفضل بن محمد بن يعلى بن سالم الضبي (المتوفى: نحو ١٦٨هـ) ، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر و عبد السلام محمد هارون ، ط٦ ، دار المعارف – القاهرة
●الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء : أبو عبيد الله بن محمد بن عمران بن موسى المرزباني (المتوفى: ٣٨٤هـ) ، تحقيق : سامي مكي العاني ، عالم الكتب .
المواقع الألكترونية :
http://www.moqatel.com

Sources and references:

The Holy Quran
•Al-Asma'iyat, chosen by Al-Asma'i: Al-Asma'i Abu Saeed Abdul Malik bin Qarib bin Ali bin Asma' (deceased: 216 AH), edited by: Ahmed Muhammad Shaker - Abdul Salam Muhammad Haroun, Dar Al-Maaref - Egypt, 7th edition, 1993 AD.
•Diwan al-Huttay'ah: It was taken care of and explained by Hamdo Tammas, 2nd edition, Dar al-Ma'rifa, Beirut, Lebanon, 2005 AD.
•Diwan Al-Hamsa: by Abu Abbad Al-Walid bin Al-Buhturi (d. 218 AH), edited by: Dr. Muhammad Ibrahim Hour, and Ahmed Muhammad Obaid, 1st edition, Cultural Foundation, Abu Dhabi, 2007 AD.
•Diwan Tarfa bin Al-Abd: It was taken care of and explained by Hamdo Tammas, 1st edition, Dar Al-Ma'rifa, Beirut, Lebanon, 2003 AD.
•The collection of Amer bin Al-Tufayl: A novel by Abu Bakr Muhammad bin Al-Qasim Al-Anbari, Dar Sader, Beirut, 1979 AD.
•The Diwan of Amr Ibn Kulthum: Collected, edited and explained by Emil Badie Yaqoub, 1st edition, Dar Al-Kitab Al-Arabi, Beirut, Lebanon, 1991 AD.
•Diwan of Qais bin Al-Khatim: Investigation: Dr. Nasser al-Din al-Assad, 2nd edition, Dar Sader, Beirut, 1967 AD.
•Diwan al-Nabigha al-Dhubyani: Taken care of and explained by Hamdo Tammas, 2nd edition, Dar al-Ma'rifa, Beirut, Lebanon, 2005 AD.
•Explanation of the Diwan of Enthusiasm (Diwan of Enthusiasm: Chosen by Abu Tammam Habib bin Aws, d. 231 AH): Yahya bin Ali bin Muhammad Al-Shaybani Al-Tabrizi, Abu Zakaria (deceased: 502 AH): Dar Al-Qalam - Beirut.
•Explanation of the Diwan of Antara bin Shaddad: presented to him and its footnotes and indexes provided by Majeed Trad, Dar Al-Kitab Al-Arabi, Beirut, 1st edition, 1992 AD.
•Explanation of the Nine Commentaries: by Abu Amr Al-Shaybani (d. 206 AH), edited and explained by: Abdul Majeed Hamo, Al-Alami Publications Foundation, Beirut - Lebanon, 1st edition, 1422 AH - 2001 AD.
•Al-Sahibi in the jurisprudence of the Arabic language and its issues and the Sunnahs of the Arabs in their speech: Ahmed bin Faris bin Zakaria Al-Qazwini Al-Razi, Abu Al-Hussein (deceased: 395 AH), publisher: Muhammad Ali Baydoun, 1st edition, 1418 AH - 1997 AD.
•Lisan al-Arab: Muhammad bin Makram bin Ali bin Manzur (d. 711 AH), review and proofreading: Dr. Youssef Al-Bikai, and others, Al-Alami Publications Foundation, Beirut, 1st edition, 2005 AD.

•Dictionary of Poets: by Imam Abu Ubayd Allah Muhammad bin Imran al-Marzbani (died: 384 AH), corrected and commented by: Professor Dr. F. Karanko, Publisher: Al-Qudsi Library, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah, Beirut - Lebanon, 2nd edition, 1402 AH - 1982 AD.
•Dictionary of the Contemporary Arabic Language: Dr. Ahmed Mukhtar Abdel Hamid Omar (died: 1424 AH), with the assistance of a work team, publisher: Alam al-Kutub, 1st edition, 1429 AH - 2008 AD.
•Al-Mufassal fi Tarikh al-Arab before Islam: Dr. Jawad Ali (deceased: 1408 AH), Dar Al-Saqi, 4th edition, 1422 AH/2001 AD.
•Al-Mufadliyat: Al-Mufaddaliyat bin Muhammad bin Ya'la bin Salem Al-Dhabi (deceased: around 168 AH), edited and explained by: Ahmed Muhammad Shaker and Abdul Salam Muhammad Haroun, 6th edition, Dar Al-Maaref - Cairo.
•Al-Muwashah fi The Scholars' Takes on Poets: Abu Ubaid Allah bin Muhammad bin Imran bin Musa Al-Marzbani (deceased: 384 AH), edited by: Sami Makki Al-Ani, The World of Books.